

الخطابة

في عهد علي بن أبي طالب
للأستاذ أحمد أحمد بدوي

- ٢ -

إلى الخطابة كثيراً ، حتى لا تفتر هذه الروح ولا تضعف ؛
وكثرة تكرار القول تدخل في النفوس توهم صدقه وصحته ،
وذلك هو السر في كثرة ما ورنثاء من خطب هذا العصر كثرة
لم نعهدها في خطب الخلفاء حينما كانوا يحضون المسلمين على حرب
الشركين .

- ١ -

ولكن الذي بين يدينا من خطب علي وصحبه ، أكثر مما
ورد لمعاوية وأركان حربه ، ويمكن أن نرجع ذلك إلى أن كثيراً
من آثار معاوية وأنصاره ، قد امتدت إليه يد النسيان والضياع ،
بعد سقوط دولتهم ، وتشتت شمل معاوينها ، فان الدولة الأموية
بعد سقوطها لم يحاول أنصارها يوماً رفع رءوسهم ولا محاولة
رجوعها ، ففقد بفقدانها الكثير من آثار خلفائها ؛ أما العلويون
فعلم أنهم كانوا يحاربون ويُقتلون ، ويلاقون من الحياة الشدة
والعناء ، كان لهم في كل مكان الأنصار والمروّجون لدعوتهم
والساعون إلى إقامة خلافتهم ، وقد نجحوا في كثير من الأحيان
فكان من الضروري لهم أن يحفظوا كلام إمامهم ، وأن يتناقلوا
أحاديثه وخطبه .

ويمكن أن ترجمه إلى أن كثيراً من الخطب التي نسبت إلى
عليّ وضمت بعد عصره وضماً ، وأضيفت إليه من غير أن يكون
قد قالها ، ولا يزيد الآن أن نحص هذه الخطب ، وأن نبين
ما وضع منها وما لم يوضع ، ولكن نقرر أن كثيراً من هذه
الخطب ألصق به إصطفاً ؛ فكان سبب ما رآه من كثرة كلام
عليّ كثرة يقل أمامها ما قاله معاوية ؛ هذا إلى أنه مما لا شك فيه
أن علياً كان أمين من معاوية قولاً وأفصح منه لساناً .

ويمكن أن يكون السبب قلة حاجة معاوية إلى الخطابة بالنسبة
إلى عليّ ، فلقد كانت الروح المعنوية في نفوس أهل الشام أقوى
وأشد منها في نفوس أهل العراق ، لأن معاوية قد ألقى في روعهم
أنهم إنما قاموا يقتضون خليفة قتل مظلوماً ، ومن قتل مظلوماً
فقد جعلنا لوليّه سلطاناً ؛ ومن أولى بالدفاع عن حق عثمان من
معاوية ؟ وكان مكر معاوية ودهاؤه حين يقول : إننا لا نريد منهم
سوى قتلة عثمان ، فليدفعوهم إلينا ونحن نبايع صاحبهم - بحرك
الشاميين إلى الأخذ بشار عثمان ، فلا حاجة إلى كثرة الخطابة
وتكرار القول ، هذا إلى أن أهل الشام كانوا أطوع لمعاوية من

ارتقت الخطابة في عهد علي بن أبي طالب ارتقاء واضحاً
وصارت سلاحاً قوياً يلجأ إليه الخليفة وخصمه ؛ ييران بها
الأنصار ، ويحفزان النفوس إلى الفارة والحروب ؛ ولقد خلف
لنا هذا العصر قدراً كبيراً من الخطب ، لم يؤثر مثله طول عهد
الخلفاء الراشدين ؛ وليس ذلك بعجيب ؛ فان المسلمين لم يقفوا
موقفاً يحتاج إلى كثرة الخطابة ، كهذا الموقف الذي وقفوه أيام
عليّ ومعاوية .

لم يقف المسلمون قبل اليوم يحارب بعضهم بعضاً ، وإنما
كانوا يجتمعون لحرب الشركين ، ونشر لواء الدين ، تملأ قلوبهم
الروح المعنوية ، والايان القوى الثين ، وتحدوهم العقيدة أن لهم
أحدى الحسينين ؛ فكان لهم من أنفسهم وازع أىّ وازع ؛ قلبهم
يدفعهم ، وعقيدتهم تقودهم ؛ فلم يكونوا يوم خرجوا لمحاربة
الفرس والروم في حاجة إلى إطالة القول والإطناب في الخطابة
لأن الدين الجديد وعقيدتهم في وجوب نشره كان يحفزهم إلى
الجهاد ، ويملا قلوبهم ثقة بالنصر ، معتقدين أن الله يمدّهم بروح من
عنده ، وأن المجاهد منهم تنتظره جنات وعيون ، أو نعيم الدنيا
وما ينتمه من العدو ، وما يناله من النى .

أما اليوم فهم مدعوون لحرب قوم لا يشركون بالله ، ولا
ينكرون محمداً ، بل هم على دينهم وعقيدتهم ، ومن جنسهم وملتهم
ولذلك كان الموقف الجديد في حاجة إلى خطيب يبرر حرب المسلم
أخاه المسلم وقتل العربى بنى قومه العرب ، واحتاج قادة الفريقين
وزعمائهم إلى الخطابة يقوون بها الروح المعنوية ، ويخلقون في
نفوسهم الايمان بأنهم يحاربون من أجل الحق والدين الذي
آمنوا به ، وبأن جهادهم ليس إلا لتسكين الاسلام ، وتنفيذ
أحكامه ، وكان المتحاربون في حاجة إلى هذه الروح حتى تشد
سواعدهم على قتل إخوانهم وذوى قرباهم ، وكان الزعماء يلجأون

أهل العراق لعلّ . معاوية وأبوه وأخوه من قوادهم يوم حارب المسلمون في الشام ، وإلى أن الشاميين كانوا في موقف المدافعين عن بلادهم ، الدائدين عن حياضهم وعن أبنائهم ونسائهم ، وهذا مما يقوى في نفوسهم روح الجهاد ويدفعهم إلى الحرب والقتال .

وهناك سبب آخر هام دعا إلى كثرة خطابة علي وصحبه ، فلقد كان الخلاف يعمش إلى قلوب أنصاره ، وكان المخالفون يبينون رأيهم بالخطابة فكان من الضروري أن يقف بينهم خطباء يدعونهم إلى الألفة واجتماع الشمل ؛ هذا إلى أن أصحاب عليّ قد خذلوا خليفتهم ، وتقاوسوا عن نصرته ، فاضطر إلى أن يرقى ذرا المنابر . وأن يرسل فيهم الصيحة تلو الصيحة يحرضهم على مناجزة أعدائه . وللإمام وأنصاره خطب كثيرة في هذا النرض .

على أن معاوية كان يلجأ إلى الخطابة الصامتة : فما كان عليه إلا أن يعلق على المنبر أصابع زوج عثمان التي قطعت في الدفاع عنه ، وقميص عثمان ، فيغنيه هذا عن تدييح القول وإطالة الحديث ؛ إذ يجد من حوله ينادون : هيا إلى الأخذ بالنار ، هيا إلى الحرب والقتال ؛ وقد يكون السبب مزيجاً من ذلك كله .

— ٣ —

لم يكن لعلّي بدّ من أن يخلق في أنصاره الروح المعنوية ، وأن يبرر لهم موقفهم من حرب قومهم وأخوانهم ، وأن يملأ قلوبهم بالحماسة والبسالة ، ويوغر صدورهم ضدّ عدوّه معاوية ومن معه ، فأحياناً يلجأ إلى العاطفة الدينية يثيرها فيظهر أعداءه في مظهر المارقين عن الدين ، والهادمين لأسسه ومبادئه ، هذا الدين الذي كان أجلّ ما يمتزون به ومحاربون في سبيله ، فيقول عليّ في خطبة : « وإيم الله ماوتر قوم قط بشيء أشدّ عليهم من أن يوتروا دينهم ، وإن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ؛ ليميتوا السنة ، ويحيوا البدعة ، ويبيدوكم في ضلالة قد أخرجكم الله عز وجلّ منها بحسن البصيرة ؛ فطيخوا عباد الله أنفساً بدمائكم دون دينكم ، فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنات النعيم ؛ وإن الفرار من الرّحف فيه السلب للعرّ ، ومغلبة على النّيء ، وذللّ الحيا والميات ، وعاب الدّنيا والآخرة ، وسخط الله وأليم عقابه » وهذه الفكرة قد تكرّرت في أكثر خطب عليّ لتتأكد في نفس أصحابه ؛ ولتصبح عقيدة إلى جانب عقيدتهم ، تدفعهم إلى حرب قومهم وبني ملهم .

وأحياناً يثير فيهم الأناثية ، فيبين لهم سوء المغبّة إذا انتصر معاوية عليهم ، ويحدثهم عما سوف ينالهم على يديه من الدّلّ والهروان ، فيقول : « أما والله لئن ظهروا عليكم بعدى ، لتجذبنهم أرباب سوء ، كأنهم والله عن قريب قد شاركوكم في بلادكم ... وكأني أنظر إليكم تكشّون ^(١) كشيش الضباب ، لا تأخذون لله حقاً ، ولا تمنعون له حرمة ، وكأني أنظر إليهم ، يجرمونكم ويحبسونكم ، ويدنون الناس دونكم » . وأحسب أن المرء حين يفرس في نفسه أنه إنما يدافع عن كيانه ، ليحفظ على نفسه حياتها وسعادتها وأمنها — يدافع عن حياضه ببسالة وقوة وهو ما يرى إليه عليّ مخاطبته .

وتارة يلجأ إلى ماضى أعدائه ؛ فيذكرهم به ، ويتحدث عما كان لهم ولآبائهم من قبلهم من خصومة للإسلام ، وسعى إلى تحطيم أساسه ، ثم يأخذ في بيان ماله من مآثر ومزايا ، يجعل الموازنة بينه وبين معاوية ضرباً من البعث ؛ قال عليّ : « ... لم يرعنى إلا شقاق رجلين قد بايماني ، وخلاف معاوية ، الذي لم يجعل الله له عز وجلّ سابقة في الدين ، ولا سلف صدق في الاسلام ، طليق بن طليق ، حزب من الأحزاب ، لم يزل لله عز وجلّ ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وللسلمين - عدواً ، هو وأبوه حتى دخلا في الاسلام كارهين ؛ فلا غزو إلا خلافتكم معه ، واتقيادكم له ، وتدعون آل نبيكم صلى الله عليه وسلم ، الذين لا يبنين لكم شقاقهم ولا خلافتهم ، ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً » وبيان مآثر عليّ ومزاياه ، وتفاصيل معاوية والظعن في أغراضه ومقاصده ، أهم ما يدور عليه خطب العلويين حين يدعون قومهم إلى الحرب والقتال .

أما معاوية بن أبي سفيان فقد لجأ أيضاً إلى الناحية الدينية يثيرها في نفوس قوميه ويحفزهم بها إلى الجهاد والقتال ؛ ينثر أمامهم حجته الوحيدة التي دفعته إلى الخلاف وشق عصا الطاعة وهي قتل عثمان ، وادعاؤه أن علياً آوى قتله ولم يأخذ بشأره ، ولذلك كان هو ومن معه قوماً نكثوا البيعة ، وسفكوا الدم الحرام في البلد الحرام .

وهناك شيء آخر يستطيع أن يستغلّه معاوية في إثارة حفيظة قومه : ذلك أن علياً وصحبه قوم أقبلوا من بلادهم ،

العهد ؛ بل كان من أغراضهم أيضاً السلح بين المقاتلين ؛ فلقد سمع الرسل بين الفريقين تريد حقن الدماء ، وكانت الخطابة عماد أحاديثهم ، وإن لم يوفق الخطباء إلى أداء مهمتهم ؛ فلقد كانوا مهددين أكثر منهم سياسيين دهاة ، يستلون السخائم من الصدور واستمع إلى حبيب بن مسلمة رسول معاوية إلى عليّ يقول : « ... أما بعد فإن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله عز وجل ، وينيب إلى أمر الله ؛ فاستقلتم حياته واستيطأتم وفاته ، فعدوتم عليه ، وقتلتموه رضى الله عنه ، فادفع إلينا قسلة عثمان ؛ إن زعمت أنك لم تقتله ، تقتلهم به ثم اعزل أمر الناس ، فيكون أمرهم شورى بينهم ، يولى الناس أمرهم من أجمع عليهم رأيهم » ولذا قال له عليّ : « وما أنت (لا أم لك) والعذل ؟ ! » . ويقول عدى ابن حاتم رسول عليّ إلى معاوية : « أما بعد فإننا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ويحفظ به الدماء ، ويؤمن به السبل ، ويصلح به ذات البين إن ابن عمك سيد المسلمين ، أفضلها سابقة ، وأحسنها في الإسلام أثراً ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله عز وجل بالذي رأوا ؛ فلم يبق أحد غيرك وغير من معك ، فاتته يا معاوية ؛ لا يبصك الله وأصحابك يوم مثل يوم الجمل » . فلما انتهى ، قال معاوية : « كأنك جئت متهدداً ، لم تأت مصلحاً »

والحق أن الخطابة التي كان يقوم بها سفراء الزعيمين لم تكن لتدل إلا على أنهما يرغبان في أن يستخلصا حفيهما بالسيف ؛ أما السفارة فلكيلا يكون ثمة مدعاة للوم أحدهما إذا اضطر إلى امتشاق الحسام

وكان من أغراضها أيضاً نصيح الصحب ، وإرشاد المقاتلين إلى ما يجب أن يفعلوه في الحرب كما يفعل القائد قبل الهجوم ، يوصي جنده وينصحهم نصائحه : قال عليّ يرشد مقاتلته : « معاشر المسلمين ، استشعروا الخشية وتجليبوا السكينة ، وعضوا على النواجذ فإنه أنبي للسيوف عن الهام ، وأكلوا اللأمة ، وقلقوا السيوف في أغمارها قبل سلبها ، والحظوا الخزر ، واطعنوا الشرر وناخروا بالظلبا ، وصلوا السيوف بالخطا ، واعلموا أنكم بين الله ومع ابن عم رسول الله ... »

ومن أغراض الخطابة لذلك العهد الدفاع عن الرأي ، ومقارعة الحجة بالحجة ، وتفنيد براهين الخصم ، وأظهر مثال لذلك الخطب

واعتمدوا على حرمة الشاميين وحرمة ديارهم ، فليس أمامهم إن أرادوا الحياة خالية من العار إلا أن يقاتلوا ويدبوا عن نساءهم وأبنائهم ، قال معاوية يحرص قومه على القتال : « ... أنظروا يا أهل الشام ، إنكم غدا تلقون أهل العراق ؛ فكونوا على إحدى ثلاث خصال : إما أن تكونوا طلبتم ماعد الله في قتال قوم بغوا عليكم ؛ فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا بيفضكم ، وإما أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتم وصهر نبيكم ؛ وإما أن تكونوا قوماً تذبون عن نساءكم وأبنائكم ، فعليكم بتقوى الله والصبر الجليل واسألوا الله لنا ولكم النصر ... »

وأيضاً كان يلجأ معاوية وصحبه في تقوية الروح المعنوية إلى الحديث عن ضمت جيش العراق وتفرق كلمته وإدبار أمره ، ولا ريب أن مثل ذلك الحديث يشجع قومه وبغيرهم بالثبات ، حتى يتم الانتصار ؛ قام عمرو بن العاص يحرص أهل الشام على القتال فقال : « إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم ، وفلوا حذم ، ثم إن أهل البصرة مخالفون لعلّ ، قد وترهم وقتلهم وقد تقانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل ، وإنما سار في شرذمة قليلة منهم من قد قتل خليفتم ؛ فالله الله في حقكم أن تضيموه ، وفي دمكم أن تطلوه »

أما العلويون فإنهم لم يستغلوا هذه الناحية أيما استغلال ، مما يدل على أن جيش معاوية لم يدع لهم هذه الفرصة ، بل كان جيشاً متحداً متماسكاً ، ولكنهم استغلوا ناحية أخرى ؛ هي أن معاوية ليس معه من له قدم سابقة في الإسلام ، أما هم فمعهم جلة الصحابة والأنصار والبدرين ؛ قال الأشتر النخعي يحث العلويين على الحرب : « ... إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدرين قريب من مائة بدرى ، سوى من حولكم من أصحاب محمد ، أكثر ما معكم رايات قد كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فمن يشك في قتال هؤلاء إلا ميت القلب ! ... » وهذا هو الحق فلقد كان أكثر الصحابة منضمين تحت راية عليّ ، ولكن ذلك لم يستطع الوقوف أمام دهاء معاوية وعمرو بن العاص ؛ فقد استطاع بفضل ما أوتيته من الحصافة والكر أن يظهرا بقلهما على كثرة علي ومن تبعه من صحابة وأنصار

لم يكن التحريض على القتال هو كل أغراض الخطباء في ذلك

ولا أرى لهم دم ، فلو أن امرأ مسلما مات من دون هذا أسفا ما كان عندى فيه ملوما ، بل كان به عندى جدرا

يا عجباً كل العجب ! عجب يمت القلب ، ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان ، من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلهم عن حقكم ، حتى أصبحتم غرضا ، ترّمون ولا ترّمون ، ويقار عليكم ولا تعيرون ، ويعصي الله عز وجل فيكم وترضون ، إذا قلت لكم اغزؤهم في الشتاء ، قلم هذا أو أن قرو صرّاً ، وإن قلت لكم : اغزؤهم في الصيف ، قلم : هذه حمارة القيط ، أنظرنا ينصرم الحر عنا ؛ فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ، فأتمم والله من السيف أفر ، يا أشباه الرجال ولا رجال ! ويا طغام الأحلام ! ! ويا عقول ربات الحجال ! لوددت أنى لم أركم ، ولم أعرفكم ، مبررة والله جرت ندما ، وأعقت سدا ! قاتلكم الله ، لقد ملأتم قلبي قيحا ، وشحنتم صدري غيظا ، وجرعتونى نغف الهمام أنفاسا ، وأفسدتم على رأيي بالعصيان والخزلان

وتعليل هذه الظاهرة سهل يسير ، هو ذا التخاذل الذى بدا من القوم بعد التحكيم ، فلقد سثموا القتال وملوه ، وركنت نفوسهم إلى الهدوء والدعة ، واستسلموا إلى الراحة ، ووجدت الفرقة سبيلها إلى قلوبهم ، فكان الإمام فى أشد الحاجة إلى ما يبعث الحياة فيهم ، ويبعد الحماسة اليهم ، فلا غزو ، كان يلجأ إلى الخطابة فيجعلها قوة الأسر ، مليئة بالألفاظ الضخمة التى تنير النفس ، وتبث النخوة ، مفعمة بالتحذير والإنذار ، علها تحيى الميت أو تبث الروح فى الجواد .

نستطيع أن نقول : إن الخطب فى عهد على تؤرخ بنا الحالة السياسية ، وتسجل أهم ما كان فى فترة خلافة على ، وفضلا عن ذلك نستطيع إذا أتت تبعت الخطب ، أن نلص الحوادث التى قيلت فيها لمسا ، وهى تكشف لك فى صراحة نفسية الامام على ، وتبين الأدوار التى مرت فيها آماله : من النهوض والتفاؤل فى أول الأمر ؛ إلى اليأس والقنوط فى آخره ، كما أنها تكشف أيضا نفسية قومه ، وتضعها أمامك فى صورة واضحة ، وإن المؤرخ ليجد فى هذه الخطب معينا لا ينضب ، يساعده على فهم نفسيات الثقاتلين ليدرك النتائج التى وصلت اليها الحرب ، وكيف كانت طبيعية لا بد من حدوثها .

أحمد محمد برورى

التي قالها على والحوارج ؛ فهي خطب مليئة كلها بالحجج والبراهين من جانب الخوارج ومن جانب الامام

— ٥ —

كانت أساليب الخطابة لذلك المهد رصينة فى جملتها ، سهلة الألفاظ إلا فى القليل ، لها مميزات الخطابة القوية ، تعتمد على الألفاظ الضخمة ، وعلى الجمل القصيرة يقل فيها السجع إلا إذا جاء عرسا غير مقصود ، فالخطبة ترسل إرسالا ، لا تتكاث فيه ولا تنمق ، ومع ذلك تكون قوية الأسر ، متينة السبك ، ولا غزو فلقد كان القائلون مقاولي العرب وأبلنهم وكان القام يتطلب لسانا بليغا يمرضهم ويدعوهم

ولقد كثر الاقتباس من القرآن ، وكان على وصحبه أكثر غراما بالانتباس يدخلون الآية والآيات فى معرض خطبهم هناك ملاحظة تبدو فى خطب على وتظهر ظهورا واضحاً إذا أنت وازنت بين خطبه التى قالها فى أول النزاع وآخره ؛ فانك تجد خطبه التى قالها بعد التحكيم ، والتى يستفز فيها القوم إلى حرب معاوية ، ضخمة فى ألفاظها ، قوية فى أسلوبها ، متينة نغمة ، أمثى وأقوى من تلك الخطب التى قالها فى أول النزاع ، وكانت خطبه تشدد وتقوى ، كلما ضعف أملة فى نصرة قومه ، وزاد تواكلهم وتخاذلهم ، وحسبك أن ترجع إلى خطبته التى قالها لرؤساء أنصاره ووجوههم بعد أن رجع من حرب الخوارج ؛ أو إلى خطبته بعد أن أغار النعمان بن بشير على عين التمر ، أو عندما أغار الضحاك بن قيس على الحيرة ، أو حينما أغار سفيان بن الغامدى على الأنبار ، واستمع إلى السيل المتدفق من فم على حين يقول : ... ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم اغزؤهم من قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا ، فتخاذلوا وتواكلتم ، وثقل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظهرياً ، حتى شئت عليكم النارات ، وملكت عليكم الأوطان ؛ هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار ، وقتل حسان بن حسان البكرى ورجالاً منهم كثيراً ونساء ، وأزال خيلكم عن مسالحها ، والذى نفسى يده ، لقد بلغنى أن كان يدخل على الرأة المسلمة والأخرى المعاهدة ، فينتزع حجبها وقلبها وفلاندها ورعها ، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام ، ثم انصرفوا وافرین ، ما نال رجلاً منهم كلم ،